

الفكر التربوي عند ابن جماعة

د. تيقرين حورية جميلة

جامعة خميس مليانة

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على ابن جماعة وآرائه التربوية التي قدمها، وكذا التعرف على المعلم وآدابه والطرق والمبادئ والوسائل التي يستخدمها أثناء قيامه بعملية التدريس للإسهام في وضع القواعد الأساسية لمهنة التعليم، والتي تسعى المؤسسات التربوية إلى صياغتها بالطرق الصحيحة، كل ذلك بغرض الاستفادة من آراء العلماء والمفكرين السابقين الذين لهم آراء تربوية قيمة في هذا المجال، حيث تطرق ابن جماعة إلى بعض المبادئ التربوية التي تعمل بها التربية الحديثة اليوم كمراعاته لمبدأ الفروق الفردية، وكذا اهتمامه بإثارة دافعية المتعلم. الكلمات المفتاحية: ابن جماعة، الفكر التربوي، القرآن، السنة.

Résumé

Le but de cette recherche est d'arriver à la connaissance de IBN DJAMAA et de ses opinions sur l'éducation auxquelles il est parvenu ; et ainsi faire connaître l'enseignant et ses qualités morales , la voie ,les principes , et les moyens qu'il utilise tout au long de son travail d'enseignement par la participation à la pose des règles principales de la fonction d'enseignant auxquelles tend l'institution de l'éducation à sa formulation par les voies justes ; et tout cela afin de bénéficier de tous les points de vue des savants et penseurs qui ont précédés ,particulièrement ceux ayant des opinions éducatives de valeur dans ce domaine ; en conséquence de quoi IBN DJAMAA s'est penché sur certains de ces principes éducationnels utilisés par l'éducation moderne et contemporaine aujourd'hui comme le principe de tenir compte de la différenciation individuelle (QI , capacité de compréhension , adaptation , etc...) et son intérêt pour les effets de la motivation (capacité de l'enseignant à motiver) selon le degrés des différences individuelles.

مقدمة:

لقد أخذت الأمة العربية والإسلامية مكانتها وموقعها المتقدم في ميدان الحضارة قرونا كثيرة وطويلة، ثم مرت بفترات ركود نتيجة لطمع الطامعين فيها، وبالرغم من ذلك، فإن هذا الركود لم يكن في يوم ما عاما يشمل كل الوطن العربي، وهذا دليل على حيوية هذه الأمة، ولعل الفترة التي عاش فيها "ابن جماعة" هي خير مثال على ذلك، ففي الوقت الذي كانت فيه بغداد حاضرة الشرق العربي تمر بفترة من الركود والجمود الفكري نتيجة التسلط الخارجي والانقسامات الداخلية والقتال السياسي، وكانت بعض أقطار الوطن العربي تتألق بإنتاج فكري وحضاري زاخر يمثل العلامة "بدر الدين بن جماعة" إحدى أكبر دعائمه بإسهاماته في ميادين علوم التفسير والفقه والأصول وعلوم الحديث، ومن مؤلفاته "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم"، وفكره التربوي الذي يتناول مقالنا العلمي هذا أحد جوانبه.

أهمية البحث:

تعيش الأمة العربية اليوم حالة انبعاث وصحوة للتفاعل مع العالم ومواجهة تحدياته، فكان من الطبيعي لهذه الأمة وهي تنبعث من جديد أن تعي ذاتها جيدا بأن تشخص واقعها وتحدد ما فيه من عوامل قوة وعوامل ضعف، ومن إيجابيات وسلبيات، وما لديها من إمكانيات مادية وبشرية، وكان لزاما عليها العودة إلى تاريخها المجيد الزاخر بالتراث الحضاري لتنهل منه بكل شغف وافتخار وموضوعية لتستقي منه إيجابياته، وتتعض من سلبياته لاستخلاص العبر والدروس التي تنفعها في حاضرها.

ومن هنا تظهر الحاجة إلى العديد من الأبحاث والدراسات لتسليط الضوء على التراث العربي وإسهامات رجال الفكر العرب في بناء الحضارة الإنسانية، وجاء بحثنا هذا كمساهمة متواضعة لخدمة هذا الغرض، وذلك بتسليط الضوء على الفكر التربوي لابن جماعة، وإبراز أهم آرائه التربوية التي أضافت الكثير إلى التراث التربوي العربي الإسلامي.

هدف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى التعرف على الفكر التربوي "لبدر الدين بن جماعة"، وإبراز التشابه والعلاقة بين آرائه والآراء التربوية الحديثة بشكل عام، وفي طرائق التدريس أو التعليم بشكل خاص.

ابن جماعة

اسمه ونسبه:

هو قاضي القضاة، شيخ الإسلام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنايني. (1)

مولده ووفاته:

ولد في حماة سنة 639هـ، وتوفي بالقاهرة سنة 733هـ، بعد أن أكمل من عمره 94 عاما. (2)

نشأته:

نشأ في بيت علم وزهد في كنف أبيه إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنايني، وكان والده من كبار الصالحين، وأسرتهم من أعرق أسر مدينة حماة التي خدم رجالها الدين والعلم والقضاء. (3)

دراسته وطلبه للعلم:

درس وهو صغيرا في حماة، ثم قدم إلى دمشق وكانت آنذاك محج العلماء، وطلب العلم بها، ثم ارتحل إلى القاهرة بمصر وتلقى أكثر علومه هناك من مشايخها.

"كان قوي المشاركة في فنون الحديث، عارفا بالتفسير والفقه وأصوله، ذكيا يقضا متفطنا، مفسرا، اشتغل بعلوم كثيرة، وذاع فضله حتى صار إماما لا يُنازع في إمامته، وعالما يوثق في علمه، وخطيبا مفوضا، خطب في المسجد الأقصى بالقدس، والمسجد الأموي بدمشق، والجامع الأزهر بمصر". (4)

شيوخه (5):

شيوخ بدر الدين بن جماعة كثيرون، وقد بلغ عددهم في مشيخته التي أخرجها البرازيلي أربعاً وسبعين شيخاً، منهم امرأة واحدة.

ومن أشهرهم:

تقي الدين أبي عبد الله محمد بن الحسين بن رزين، والمتوفى سنة 680هـ، ومعين الدين أحمد بن علي يوسف الدمشقي، والمتوفى سنة 667هـ، وزين الدين أبي الطاهر إسماعيل بن عبد القوي بن أبي العز بن عزون، والمتوفى سنة 667هـ، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الإمام اللغوي المشهور المتوفى سنة 672هـ.

تلاميذه (6):

من أبرز تلاميذ بدر الدين بن جماعة ما يلي:

- الإمام الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، المتوفى سنة 748هـ.

- ابن جابر المغربي: محمد بن جابر الوادي أشي، المتوفى سنة 749هـ.

- السبكي: عبد الوهاب بن علي، المتوفى سنة 771هـ.

أعماله:

عُرف عن ابن جماعة مهارته في إنشاء المدارس وتأسيسها على قواعد متينة، والإشراف عليها بوسائل وأساليب مبتكرة، وشهد له العلماء بإجادة التدريس وإتقانه وامتلاك مهاراته، وعُرف بالخصال الحميدة، والصفات الحسنة التي يحتاجها المعلمون في تعليمهم.

حيث كان بحق رجل تربية وتعليم كما يُطلق عليه الآن.

1- أسند إليه قضاء الشافعية بالقدس عام 687هـ.

2- نُقل إلى قضاء الديار المصرية سنة 690هـ.

3- تنقل بين قضاء الشافعية بالقدس وقضاء الديار المصرية بين عامي 703هـ و709هـ.

4- عُزل عن القضاء ثم أعيد إليه سنة 710هـ.

ويُقال أنه أقام مدة بعد أن أصيب بالعمى يُبشر القضاء وهو منقطع في منزله. (7) لذلك لُقّب بقاضي القضاة.

ولقد لُقّب بشيخ المحدثين، وذلك لضلوعه في علم الحديث النبوي، ودوره في تدريسه والتأليف فيه، ولحسن تأليفه وتحريره للمسائل، فقد لُقّب بشيخ المحققين. (8)

مؤلفاته ونتاج فكره:

يقول "حاجي خليفة" في كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" (9): كان ابن جماعة كثير التأليف في شتى المعارف ومن أهم مؤلفاته:

1- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم.

2- المختصر في علم الحديث.

3- كتاب المسالك في علم المناسك.

4- المنهل الروي في علم الحديث النبوي.

5- تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام.

6- تنقيح المناظرة في تصميم المخابرة.

7- حجة السلوك في مهادة السلوك.

8- الطاعة في فضيلة صلاة الجماعة.

9- غرر التبيان في تفسير القرآن.....

الفكر التربوي عند ابن جماعة:

يجد الباحث أن آراء ابن جماعة التربوية والفكر التربوي عنده قد ظهر من خلال مؤلفه: (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم)، وهو كتاب جامع لما يجب أن يكون عليه العالم وطالب العلم من آداب الإسلام المستمدة من السنة النبوية الشريفة، حيث استعرض فيه التعليم عن المسلمين، وما يتعلق بأسس التعليم والتعلم، وهو من أفضل الكتب التربوية في التراث الإسلامي فيما يتعلق بأخلاق التدريس.

ويمكن إجمال آراء ابن جماعة التربوية بما يلي:

آداب العالم في نفسه: ذكر ابن جماعة آداباً يتوجب على العالم تجاه نفسه، ودرسه وطلبته، وهذا الأمر ينبغي أن يتحلى به كل معلم ومن تسلم زمام التعليم في وقتنا الحاضر مع مراعاة تغير الزمان وباستطاعتنا ذلك، والعالم هنا هو المعلم في وقتنا

الحاضر، وقد حوت هذه الآداب اثني عشر نوعا كما ذكر ابن جماعة، وهي كما يراها الباحث نصائح للمعلم تجاه نفسه، وهي على النحو التالي:

الأول: دوام مراقبة الله في السر والعلن والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله (10) فإنه -أي العالم- أمين على ما أودع من العلوم وما منح من الحواس والمفهوم، حيث قال تعالى: «لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون» (11)، فلو اكتفى المعلم بمراقبة الله تعالى وخاصة في وقتنا هذا لتحسنت أمور كثيرة، فمراقبة الله تجعله محافظا على وقت الدرس، محافظا على تمامه، عادلا بين طلابه، يعاملهم برفق، ناصحا مرشدا لهم، وغير ذلك لمن يستحضر مراقبة الله.

الثاني: أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا غير ضرورة أو حاجة إلى من يتعلمه منه وإن عظم شأنه وكبر قدره. (12) فصيانة العلم له صور عديدة، فاطلاع المعلم ومراجعة مادته هو صيانة للعلم، وكذلك تدوين ما هو جديد والإضافة إلى ما عنده بما يتعلق بمادته.

الثالث: أن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقليل منها بقدر الإمكان الذي لا يضر بنفسه أو بعياله. (13)

الرابع: أن ينزه علمه عن جعله سلما يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة، أو تقدم على أقرانه. (14)

ولا يتعارض ذلك لمن أراد التميز، أو الوظيفة اللائقة، أو إكمال الدراسات العليا، إنما يكفي المرء أن يبتعد عن النفاق والرياء في علمه، وأن ينوي بذلك العلم ابتغاء وجه الله، وأن يتخذ علمه سبب لرفعة شأنه وليس لكبرياء نفسه.

الخامس: أن يتنزه عن دنيء المكاسب ورذيلتها طبعاً، وعن مكروهاها عادة وشرعاً، كذلك يتجنب مواضع التهم (15) وإن بعدت [ولا يفعل] شيئاً يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهراً وإن كان جائزاً باطناً فإنه يُعرض نفسه للتهمة، وعرضه للوقيعة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة وتأثير الواقعة، فإن اتفق وقوع شيء من ذلك [منه] لحاجة أو نحوها أخبر من شاهده بحكمه وبعذر ومقصوده كيلا يَأْثَمَ بسببه أو ينفر عنه، فلا تنفع بعلمه وليستفيد ذلك الجاهل به.

السادس: أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام، كإقامة الصلاة في المساجد للجماعات وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر عن الأذى. (16)

لأن المعلم قدوة وموضع احترام من طلابه ومجتمعه، فهو في نظرهم متعلم مثقف لم يصل إلى هذه المنزلة والمكانة إلا بجهد وتعب وسعة اطلاع، فلا بد أن يعي معلمو هذا الزمان ذلك الأمر، وأن يولوه اهتمامهم، فعين الطالب والمجتمع ناقدة وبخاصة لمن يتولى أمور المسلمين.

السابع: أن يحافظ على المندوبات الشرعية القولية والفعلية، فيلازم تلاوة القرآن، وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وحفظ هبة النبي عند ذكر اسمه. (17)

الثامن: معاملة الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه، وإفشاء السلام وإطعام الطعام، وكظم الغيظ وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم والإيثار، وترك الاستئثار، والإنصاف والتلطف بالفقراء، والتحبب إلى الجيران والأقرباء، والرفق بالطلبة، وإعانتهم ويزيهم... (18)

التاسع: أن يظهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة كالغل والحسد والبغي والغضب لغير الله، والرياء والبخل والخبث والبطر، ويعمره بالأخلاق المرضية، وأن يذكر أن علمه وفهمه وجودة ذهنه، وفصاحته، وغير ذلك من النعم والفضل من الله عليه، وأمانة عنده ليرعاها حق رعايتها... (19)

العاشر: دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الأوراد من العبادة. (20)

الحادي عشر: أن لا يستنكف أن يستفيد مالا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها. (21)

الثاني عشر: الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، لكن مع تمام الفضيلة وكمال الأهلية، فإنه يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة (22)، وهو كما قال الخطيب البغدادي: يُثبت الحفظ ويذكر القلب ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويكسب جميل الذكر وجزيل الأجر ويخلده إلى آخر الدهر. (23)

ومما سبق تتضح لنا نظرة هذا العالم والمربي الجليل إلى ما يجب عليه العالم (المعلم) تجاه نفسه، فكما فضل الله العالم على الجاهل وجعل له منزلة (العلماء ورثة الأنبياء)، يجب على العالم أن يكون عند حسن الظن، وهذه الأمور يراها ابن جماعة بأنها معيار أو مقياس للعالم في نفسه إن طبقها كان ذلك نجاحاً له.

وحتى يتأكد المعلم في وقتنا الحالي من مدى تحقق أدبه مع نفسه على رأي ابن جماعة، فيمكنه تقييم نفسه من خلال طرح الأسئلة التالية:

رقم السؤال	السؤال	الإجابة
س1	هل أنا أراقب الله في سري وعلني؟	
س2	هل أنا محافظ على العلم الذي عندي؟	
س3	هل كان علمي لأمر الدنيا فقط؟	
س4	هل أنا قدوة لطلابي ومجتمعي؟	
س5	هل أحب للناس ما أحبه لنفسي؟	
س6	هل أنا مجتهد في حق عملي؟ وحق ربي؟	
س7	هل أستحي أن أطلب العلم ممن هو أقل مني.	
س8	هل استفدت من تدريسي فأبدعت بتأليف ما ينفع غيري؟	

آداب العالم في درسه:

ويرى ابن جماعة أن العالم (المعلم) ينبغي له أن يتمثل آداب العالم في درسه الذي سيعلمه لطلابه، وهي شبيهة بالخطة التي يضعها المعلم لأداء درسه، وما يتوجب عليه في إعدادها لها، وقد أورد اثني عشر نوعاً كما ذكر في كتابه، وهي كما يلي:

1- إذا عزم على مجلس التدريس تطهر من الحدث والخبث وتطيب ولبس من أحسن ثيابه اللائقة بأهل زمانه قاصداً بذلك تعظيم العلم، وتبجيل الشريعة، وهنا يذكر ابن جماعة بطريقة الإمام مالك عندما كان يجلس للدرس، حيث يقول: كان الإمام مالك رضي الله عنه إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدد، ووضع رداءه على رأسه ثم يجلس على منصة، فلا يزال يئخر بالعود حتى يفرغ. (24)

فما الناس إلا مظاهر، فجمال المنظر يوحي للمتلقي بالراحة كما يقول علماء النفس، ومن يهمل في هذا الشأن هم أولئك الطلاب الذين يتلقون من معلمهم العلم.

ولذلك نجد أن من تقييم المعلم بند يسمى (المظهر الخارجي) وله درجة خاصة به.

2- الدعاء قبل الخروج للدرس، والأذكار قبل الدرس.

3- أن يجلس بارزا لجميع الحاضرين ويوقر فاضلهم بالعلم والسن والصلاح والشرف، ويرفعهم على حسب تقديمهم في الأمانة ويتلطف بالباقيين ويكرمهم بحسن السلام وطلاقة الوجه، ومزيد من الاحترام ولا يكره القيام لأكابر أهل الإسلام على سبيل الإكرام، حيث ورد بذلك نصوص كثيرة بشأن إكرام العلماء وإكرام طلبة العلم، ويلتفت إلى الحاضرين التفاتا قصدا بحسب الحاجة، ويخص من يكلمه أو يسأله بمزيد الالتفات إليه وإقبال عليه، وإن كان صغيرا أو ضعيفا فإن ترك ذلك من أعمال المتكبرين المتجبرين. (25)

4- أن يقدم على الشروع في البحث والتدريس قراءة شيء من كتاب الله تعالى تبركا وتيمنا كما هو العادة. (26)

5- إذا تعددت الدروس قدم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذهب، ثم الخلاف، أو النحو أو الجدل، وكان بعض العلماء الزهاد يختم الدروس بدروس رقائق الأخبار، فيفيد به الحاضرين. (27)

6- أن لا يرفع صوته زائدا على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضا لا يحصل معه كمال الفائدة، إذن فعلى المدرس الانتباه إلى رفع صوته وخفضه بحسب الجلسة، بحيث يُسمع الحضور كافة. (28)

والأولى أن لا يتجاوز صوته مجلسه، ولا يقصر عن سماع الحاضرين، فإن حضر فيهم ثقل السمع فلا بأس بعلو صوته بقدر ما يسمعه، فقد روى في فضيلة ذلك حديث، ولا يسرد الكلام سردا بل يرتله ويرتبه ويتمهل فيه ليفكر فيه هو وسامعه، وهذا الأمر قد نفتقده عند معلمينا، ونحن الآن في أمس الحاجة إليه، ونظرة ابن جماعة لهذا الأمر عين الصواب.

7- أن يصون مجلسه عن اللغط، فإن اللغط يحث الغلط.

لأن مجلس العلم روضة العالم والمتعلمين، واللغط فيه يعكر جوه، ويفسد روعته.

8- أن يزجر من تعدى في بحثه أو ترك الإنصاف بعد ظهور الحق، أو أكثر الصياح بغير فائدة، أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه، أو نام أو تحدث مع غيره أو ضحك أو استهزأ بأحد من الحاضرين أو فعل ما يخل بأدب الطالب في الحلقة. (29)

9- أن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه ويسمع السؤال من مورده على وجهه، وإن كان صغيرا ولا يترفع على سماعه فيحرم الفائدة، وإذا سئل عما لم يعلمه قال: لا أعلمه أو لا أدري، فمن العلم أن يقول "لا أعلم"، وعند بعضهم "لا أدري" نصف العلم، وأعلم أن قول المسئول "لا أدري" لا يضيع من قدره كما يظنه بعض الجهلة، بل يرفعه لأنه دليل على عظم شخصه وقوة دينه وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته. (30)

10- أن يتودد لغريب حضر عنده، وينبسط له لشرح صدره، فإن للقدام دهشة، ولا يكثر الالتفات والنظر إليه استغرابا له، فإن ذلك مخجلة، وإذا أقبل بعض الفضلاء وقد شرح في مسألة امسك عنها حتى يجلس، وإذا جاء وهو يبحث في مسألة أعادها له أو مقصودها. (31)

11- جرت العادة أن يقول المدرس عند ختم كل درس والله أعلم، وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب، لكن الأولى أن يقال قبل ذلك الكلام كلام يشعر بختم الدرس كقوله: وهذا آخره أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك ليكون قوله: "والله أعلم" خالصا لذكر الله تعالى، ولقصد معناه، ولهذا ينبغي أن يستفتح كل درس "بسم الله الرحمن الرحيم" ليكون ذاكرة لله تعالى في بدايته وخاتمه.

وهو هنا يتحدث عن عصره ولا يمنع أن يكون ذلك في عصرنا نحن أيضا، فذكر الله واجب والتفاؤل به مطلوب، ولكن ينوع كل معلم في طريقة ذكر الله بداية ونهاية كل درس.

والأولى للمدرس عدم الخروج فوراً من الحلقة، إذ يفضل المكوث قليلاً بعد انتهاء الدرس لأن فيه فوائد: لتلافي التزاحم مع الطلاب من ناحية، أو لعل حاجة عند أحدهم يقضيها له بعد خروج زملائه من ناحية أخرى، يضاف إلى ذلك ما لهذه القاعدة من فوائد أخرى عديدة. (32)

12- أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلاً له، ولا بذكر الدرس من علم يعرفه، سواء اشتراطه الواقف أو لم يشترطه، فإن ذلك لعب في الدين وازدراء بين الناس. (33)

آداب العالم مع طلبته وفي حلقة:

وقد ذكر فيها ابن جماعة - رحمه الله - أربعة عشر نوعاً ووجهها للعالم في التعامل مع طلبته، وطريقته في إدارة حلقة وهي على النحو التالي:

1- أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى، ونشر العلم وإحياء الشرع ودوام ظهور الحق وخمول الباطل، ودوام خير الأمة بكثرة علمائها، واغتنام ثواب من ينتهي إليه علمه من بعدهم، وبركة دعائهم له وترحمهم عليه، فتعليم العلم من أهم أمور الدين، وأعلى درجات المؤمنين، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: "إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب شيوخهم تودع من العيش". (34)

2- أن لا يمتنع من تعليم الطالب لعدم خلوص نيته، فإن حسن النية مرجو له ببركة العلم، قال بعض السلف: "طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا الله". (35)

3- أن يرغب في العلم وطلبه في أكثر الأوقات بذكر ما أعد الله تعالى للعلماء من منازل الكرامات، وأنهم ورثة الأنبياء، وعلى منابر من نور تغبطهم الأنبياء والشهداء، ونحو ذلك مما ورد في فضل العلم والعلماء من الآيات والأخبار والآثار والأشعار. (36)

4- أن يحب لطالبه ما يحب لنفسه، كما جاء في الحديث (37)، ويكره له ما يكره لنفسه، وينبغي أن يعتني بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الحنو والشفقة عليه، والإحسان إليه، والصبر على جفاء ربما وقع منه ونقص لا يكاد يخلو الإنسان منه، وسوء أدب في بعض الأحيان، ويسيطر عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف لا بتعنيف وتعسف، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه. (38)

5- أن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه وحسن التلطف في تفهمه، لاسيما إذا كان أهلاً لذلك لحسن أدبه وجودة طلبه، ويحرضه على طلب الفوائد وحفظ النوادر الفرائد، ولا يدخر عنه من أنواع العلوم ما يسأله عنه وهو أهل له، لأن ذلك ربما يوحش الصدر وينفر القلب ويورث الوحشة. (39)

6- أن يحرص على تعليمه وتفهمه ببذل جهده، وتقريب المعنى له من غير إكثار لا يحتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف ذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره. (40)

7- إذا فرغ الشيخ من شرح الدرس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة يمتحن بها فهمهم وضبطهم لما شرح لهم، فمن ظهر استحكام فهمه له بتكرار الإجابة في جوابه شكره، ومن لم يفهمه تلطف في إعاداته له، والمعنى بطرح المسائل أن الطالب ربما استحي من قوله لم أفهم إما لرفع كلفة الإعادة عن الشيخ، أو لضيق الوقت أو حياء من الحاضرين، أو كيلاً تتأثر قراءتهم بسببه. (41)

8- أن يطالب الطلبة في بعض الأوقات بإعادة المحفوظات، ويمتنع ضبطهم لما قدّم لهم من القواعد المهمة والمسائل الغريبة، ويختبرهم بمسائل تنبني على أصل قرره أو دليل ذكره.

فمن رآه مصيباً في الجواب ولم يخف عليه شدة الإعجاب شكره وأثنى عليه بين أصحابه ليعثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد، ومن رآه مقصراً ولم يخف نفوره عتفه على قصوره وحرّضه على ما يقتضي علو الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم، ولا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطاً والشكر انبساطاً. (42)

9- إذا سلك الطالب في التحصيل فوق ما يقتضيه حاله أو تحمله طاقته وخاف الشيخ ضجره أو صاه بالرفق بنفسه، وفي هذا الشأن يرى "ابن الجوزي" أنه "من الغلط تحميل القلب حفظ الكثير من فنون شتى، فإن القلب جارحة من الجوارح، وكما أن من الناس من يحمل المائة رطل، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً، فكذلك القلوب". (43)

فليأخذ الإنسان على قدر قوته ودونها، فإنه إذا استنفذها في وقت ضاعت منه أوقات.

10- أن لا يُظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودة أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة، فإن ذلك ربما يوحش منه الصدر وينفر القلب. (44)

11- أن يراقب أحوال الطلبة في آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطناً أو ظاهراً، فمن صدر منه في ذلك ما لا يليق من ارتكاب محرم أو مكروه ما يؤدي إلى فساد حال أو ترك اشتغال، أو إساءة أدب في حق الشيخ وغيره، أو كثر كلامه بغير فائدة نهاه عن ذلك بالإشارة، وباطناً فإن لم ينتبه نهاه جهرة ويغلط له القول لينزجر، فإن لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع.

12- أن يسعى في مصالح الطلبة وجمع قلوبهم ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه أو مال عند قدرته على ذلك، وسلامة دينه وعدم ضرورته، فإن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله تعالى في حاجته.

13- أن يتواضع مع الطالب وكل مسترشد سائل إذا قام بما يجب عليه من حقوق الله تعالى وحقوقه، ويخفف له جناحه ويلين له جانبه. (45) كذلك على المعلم أن يخاطبهم بكنيتهم أو بأسمائهم وبما يُفرج قلوبهم، بل وعليه أن يسألهم عن أحوالهم وأحوال من يتعلق بهم.

طرائق التدريس عند ابن جماعة:

إن ما وضعه ابن جماعة من أسس ومبادئ فيما يتعلق بطرائق التدريس تعتبر فعلاً مفخرة من مفاخر تراثنا العربي الإسلامي، لأن هذه الأسس والمبادئ هي ذاتها ميدان التربية في وقتنا الحاضر، وسنورد بعض الأمثلة عن ذلك:

1- أن نستند إلى مبادئ التعلم، فتأخذ الطريقة باعتبارها عامل الدافعية لدى المتعلمين وفعالية المتعلم ونشاطه الذاتي في التعلم ومستوى ذكاء المتعلم، كما دعا إلى ضرورة التدرج في التعليم، حيث يبدأ التعليم من المسائل العامة والأصول المجملّة ثم يخرج بعد ذلك عن الإجمال إلى الشرح والبيان، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الغوص في التفاصيل، "وهذا ما يؤكد عليه علم النفس التربوي، فالقدرة على التعلم ترتبط بدرجة النضج التي يكون عليها الفرد عندما يواجه الموقف التعليمي". (46)

2- والطريقة والسليمة والجيدة في التدريس عنده هي تلك التي تراعي الصحة العقلية والجسمية، وذلك بأن لا تلجأ إلى القسوة و إثارة مخاوف الطلاب، وأن تعمل على تنمية الانضباط الذاتي لدى المتعلم، وتهيئة فرص التعاون والتآخي بين المتعلمين، ولم يجذ ابن جماعة العقاب، وإنما كان يرى ضرورة أخذ المتعلمين من الأطفال بالملاينة والرحمة لا بالشدة، وكان يعتقد إذا تم التعليم بالقهر والإجبار، فإن ذلك ينعكس سلباً على نفسية المتعلم، فيكون ضعيف النفس كسولاً وميلاً للكذب والخداع، ويرى ابن جماعة أن أنجح المعلمين أشدهم حباً لتلاميذهم. (47)

وبهذا فهو يشترك في الرأي -التعامل مع الطلبة- مع ما تدعو إليه التربية الحديثة. (48)

3- يرى ابن جماعة أن أفضل طرائق التدريس تلك التي تراعي طبيعة المادة التعليمية من خلال الاعتماد على الأمثلة والانتقال من المحسوس إلى المجرد، وهذا يعد من أحد المبادئ التي تؤكد نظريات التعلم في مجال التربية وعلم النفس والتي تدعو إلى البدء بالمعلوم فالجهول، وبالمحسوس فالمجرد.

ومن خلال ما تقدم يتضح أن الفقيه المربي العربي ابن جماعة قد توصل إلى العديد من الأفكار والآراء التربوية التي تمثل أحد مبادئ الفكر التربوي المعاصر، وأن معظم الآراء التربوية التي طرحها أو تناولها ابن جماعة تبدو وكأنها كلام لعالم أو فيلسوف تربوي معاصر، وأن هذا ليبعث في نفوسنا الفخر والاعتزاز بهذا المفكر الفذ الذي كان واحداً من مئات العلماء العرب المسلمين الأفاضل الذين يزرع بهم تاريخنا العتيق وتراثنا الفكري والتربوي المجيد على مر العصور، وأن هذا ليبعث الثقة في نفوسنا وفي إمكانياتنا لدفع أمتنا العربية العريقة نحو التقدم رغم التحديات الصعبة التي تواجهها حتى تكون دائماً وأبداً رمز العطاء المثمر للإنسانية جمعاء.

الخلاصة:

يتضح مما تقدم أن ابن جماعة في حديثه عن المعلم والمتعلم وطرائق التدريس في كتابه "تذكرة السامع والمتكلم..." أدرك أن المعلم من أهم عناصر العملية التعليمية، حيث تناول أبعاد كفايته الخاصة ممثلة في غزارة مادته العلمية، ومداومة التعلم والدراسة، فالمعلم في رأي "ابن جماعة" أحسن متعلم، في ثقافته العامة، وفي معرفته التامة بتلميذه، كما تحدث عن الصفات الواجب توافرها في المعلم الجيد، إلى جانب مسؤوليات المعلم التي يراها "ابن جماعة" على أنها أعظم من مسؤوليات غيره، لأن عمله هو إبداع قوى التلاميذ وتفجير طاقاتهم واستعداداتهم إلى أقصى حد ممكن، حيث تمثلت مسؤوليات المعلم: مسؤولية تجاه المادة التي يقوم بتدريسها، ومسؤوليته تجاه الإرشاد والتوجيه ومساعدة التلاميذ على تحقيق ذواتهم، ومسؤوليته تجاه الصحة النفسية له ولتلاميذه، كما عالج "ابن جماعة" الأسس الفنية للتعليم في كتابه "تذكرة السامع" مشيراً إلى العوامل التي تؤثر في التعليم وتهيمن عليه، ومن الجدير بالملاحظة أنه قبل أن يطلعنا علم النفس التعليمي على مبادئ التعليم وقوانينه، كان للعلامة "ابن جماعة" محاولات جادة لسبر العلاقة بين طبيعة المتعلم وعملية التعليم، كما أشار إلى مبدأ الدافعية، حيث توصل إلى أن الطلاب يتعلمون بصورة أفضل إذا ما اشتدت رغبتهم في التعلم، وقد رأى أن المتعلم ينبغي أن يكون نشيطاً لما يريد أن يتعلمه، وأن التعلم يتناسب مع ما يبذله المتعلم من جهد.

وفيما يتعلق بمبدأ الثواب والعقاب، توصل "ابن جماعة" إلى أن المكافأة تثبت المتعلم، وأن أفضل أنواع المعززات التي يمكن للمعلم استعمالها عند تعامله مع طلابه هي القبول والثناء، ودعا "ابن جماعة" إلى استخدام أنواع مخففة من العقوبة لأنها بواعث على التعلم، بحيث لا تسبب ألماً ولا أذى، ولا تلحق إهانة.

وأما ما يتعلق بطرائق التدريس، فقد اهتم "ابن جماعة" بطريقة المحاضرات والطريقة الإلقائية التي تستند إليها هذه الطريقة في عصره.

المراجع:

- (1) أبو الفدا الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، ج14، مكتبة المعارف، بيروت، 1966، ص163.
- (2) المصدر نفسه، ص163
- (3) المصدر نفسه، ص163
- (4) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج3، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1967، ص387
- (5) ابن جماعة، تنقيح المناظرة في تصحيح المخابرة، تحقيق ودراسة عبد السلام بن سالم بن رجاء السحيمي، عن www.almeshkat.com
- (6) ابن جماعة، تنقيح...، المصدر السابق.
- (7) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص368.
- (8) أمين أبو لاوي، أصول التربية الإسلامية، 2002، ص297.
- (9) حاجي خليفة، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م، ج6
- (10) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، حقق نصوصه وأخرج أحاديثه وعلق به عبد السلام عمر علي، ط1، مكتبة ابن عباس، دار الآثار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1425هـ، 2005م، ص85.
- (11) سورة الأنفال، الآية 27
- (12) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص86.
- (13) المصدر نفسه، ص88.
- (14) المصدر نفسه، ص89.
- (15) المصدر نفسه، ص89.
- (16) المصدر نفسه، ص91.
- (17) المصدر نفسه، ص92.
- (18) المصدر نفسه، ص96-97.
- (19) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص98.
- (20) المصدر نفسه، ص103.
- (21) المصدر نفسه، ص105.
- (22) المصدر نفسه، ص107.
- (23) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمد محمد الطحان، ج2، مكتبة المعارف، الرياض، 2010، ص71.
- (24) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص109.
- (25) المصدر نفسه، ص109.
- (26) المصدر نفسه، ص118.
- (27) السمعاني، في أدب الإملاء والاستملاء، المصدر السابق، ص34.
- (28) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص121.
- (29) المصدر نفسه، ص123.
- (30) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص128.
- (31) المصدر نفسه، ص129-130.

- (32) المصدر نفسه، ص ص 131-132.
- (33) المصدر نفسه، ص 133.
- (34) المصدر نفسه، ص 134.
- (35) محمد بن أبي يعلى البغدادي، طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ج 1، ص 247.
- (36) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص 138.
- (37) المصدر نفسه، ص ص 138-139.
- (38) أخرجه البخاري (13)، ومسلم (45)، والترمذي (2515).
- (39) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص 140.
- (40) المصدر نفسه، ص 141.
- (41) المصدر نفسه، ص 143.
- (42) المصدر نفسه، ص 144.
- (43) ابن الجوزي، صيد الخاطر، عناية، حسن المساحي سويدان، ط 1، دار القلم، دمشق، 1425هـ/2004، ص 213.
- (44) ابن جماعة، تذكرة السامع...، المصدر السابق، ص ص 152-153.
- (45) المصدر نفسه، ص ص 154-155.
- (46) صلاح مخيمر وآخرون، مدخل إلى سيكولوجية التعلم، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1969، ص 151.
- (47) ابن جماعة، المصدر السابق، ص 19.
- (48) أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1966، ص 294.